الفصل السابع

الرحيل هو الحل

التقى خدام مع بشار عقب لقاء الأخير مع الحريري مباشرةً وقبل أن يلتقيالحريري بخدام،وصُعِق مِمّا سمعه مما داربين الرجلين من حوار خشن، وسأله خدام بغضب:

كيف تتحدث لرئيس وزراء لبنان بهذه الطريقة؟إنه حليف وثيق لسوريا، خدم سوريا طويلًا،ماذا سيكون شعوره الآن؟هل سيفيد ما جرى سوريا؟

طلب بشار من خدام عند لقائه الحريري أن يجدد له الدعوة بزيارة دمشق،لكن الحريري رفض العودة لدمشق معتبرًا أن ما حدث لن يُمْحَى من ذاكرته ما بقي حيًا، وغادر من بلودان إلى بيروت مباشرة.

كان هذا التصرف العدائي من بشار تجاه الحريري ليس لكراهية بشار للحريري فقط،لكن أيضًا نتيجةً طبيعيةً لحملات التشهير والتشويه التي أطلقها رستم غزالة وقادها اللواء جميل السيد مدير الأمن العام وحليف

obeikandl.com

لحود، صَوَّرَت الحملة الحريريفي صورة الخائن الساعي لنزع سلاح حزب الله وإسقاط سوريا.

اعتاد بشارلقاء السيد وغيره من حلفاء سوريا في دمشق والاستماع لأكاذيبهم التي على أساسها كان يصوغ معاملته للحريري، أضف إلى ذلك التقارير المغلوطة التيكان رستم غزالة يرسلها لبشار إلى جانب التقارير المغلوطة الأخرى التي كانت تبعث بها المخابرات اللبنانية بشِقَّيْها العام والعسكري.

تأثرت شعبية الحريري وعلاقاته سلبًا نتيجة تلك الحملات المسعورة، حتى علاقاته مع حزب الله بدأت تتوتربالرغم من الكيمياء الخاصة التي جمعت بينه وبين حسن نصر الله الأمين العام للحزب، ورغم المستوى المتردي من العلاقات مع دمشق إلا أن الحريري بقي يدافع في كل مناسبة عن المصالح السورية في لبنان.

في أحد المؤتمرات الصحفية، سأل صحفي الحريري عن حقيقة تدخل سوريا في الشأن الداخلي اللبناني، فَرَدَّالحريري بثقة:

"الاتهامات بتدخل سوريا في الشئون اللبنانية مبالغ فيها إلى حد كبير، إنها تقلب الأمور رأسًا على عقب."

لم يكتف الحريري بذلك،بل حتى إنه تدخل بثقله الدبلوماسي ليزيل ضغطًا سياسيًاغربيًاجديدًا كان سيقع على كاهل النظام السوري،لكنه من فرنسا هذه المرة وليس الولايات المتحدة.

أوائل أيام 2004م، تَلَقّى اتصالًا هاتفيًا من صديق له يعيش في باريس يخبره فيه أن مشاورات تجريفي البرلمان الفرنسي لاستصدارقانون فرنسي على شاكلة قانون محاسبة سوريا الأمريكي من قبل الحزب الحاكمالذي يرأسه شيراك،ونفىالحريري علمه بهذا الأمر.

اتصل الحريري بشيراك ليستطلع منه الأمر،ونفى شيراك بدوره علمه بهذا القانون، وحذرالحريري الرئيس الفرنسيمن الآثارالسلبية لهذا القرار الذي رأى أنه سيكون ذا تأثيرضارعلى العلاقات (اللبنانية- السورية) وسيفجرالوضع في لبنان،وبتدخل من شيراك أصبح القانون حبيس الأدراج.

بعد أسبوعين من هذه الواقعة،اتصل بشارالأسد بالحريريواتهمه بتدبير هذه الواقعة ليتصل بشيراك ويلغي القانون ويشعرالنظام السوريأنه مَدِين بالشكرله على ما فعله من أجلهم،وهكذا ازداد الشرخ في العلاقة المضطربة أصلًا بين الحريري ورأس النظام السوري.

وَجَّـه بشــاررســالةً جديــدةً للحريــري أواخــرينــاير2004م،ففـي الثــامن والعشرين من هذا الشهر أَتَمَّ حزب الله عملية تبادل أسرى واستقبل رئيس الجمهوريـة لحـود وإلى جـواره حسـن نصـرالله وثالثهمـا الحريـري الأسـرى المحررين في مطاربيروت،وكان مفاد هذه الرسالة أن مكانة الحريري وحتى ترتيبه في النظام السياسياللبناني قد أصبحا في مهب الريح.

كـان عنـاد بشـاريعيقـه عـن التنبـؤ بـالمتغيرات الدوليـة،كان الأمريكيـون والأوروبيـون يخططـون منـذ بـدايات 2004م لإخـراج الجـيش السـوري مـن لبنان،وعقــب ختــام أعمــال الاجتمــاع الوزاري(اللبنــاني- الأوروبي)فـي العاصـمة البلجيكيـة بروكسـل، سـمع وزيـرالخارجيـة اللبنـاني بـالوكالـة مـروان حمـادة مـن رئـيس الاجتمـاع الـهولنـديأن جـدول الأعمـال الأوروبـي يتضمن بندًا واحدًا:

إخراج السوريين من لبنان.

لكن بشارًا تعامى عن كل ذلك وتَفَرَّغ ليكيد للحريري.

وجـه بشــارضـربةً أخـرى لحليــف الحريــري وصـديقه الصـدوق جــاك شيراك،وذلك بأن أرست وزارة النفط السورية عطاء تطوير حقول الغازفي المنطقة الوسطى السورية البالغ قيمته سبعمائة مليون دولارعلى تحالـف

(كنـدي- بريطاني) بـدلًا مـن شـركة توتـال الفرنسـية، الأمر الـذي أغضـب شيراك.

مازاد من غضب شيراك هو تَعَهُّد بشار في رسالة أرسلها إليه بأن العطاء سيكون من نصيب توتال، وحشد بشار في الشهر التالي حلفاءه في لبنان لشل الحريري سياسيًا.

أوائل مايو 2004م جرت الانتخابات البلدية في لبنان، وكانت نتائجها متفاوتةً بالنسبة للحريري، ففي بيروت فازت اللائحة التي دعمها، بينما هُزِم هزيمةً نكراء في صيدا، بينما حقق حزب الله نجاحًا كاسحًا في معاقله بضاحية بيروت الجنوبية وجنوب لبنان، وكان فَخًّا سوريًا جديدًا قد نُصِب للحريري لاحقًا.

بعد أربعة أيام من جولة الانتخابات الأخيرة وقعت مصادمات بين الأمن اللبناني ومؤيدين لحزب الله في حي السلم بضاحية بيروت الجنوبية، كانوا ينظمون إضرابًا للاحتجاج على ارتفاع أسعار النفط، ووقوع تلك المصادمات من شأنه إضعاف سلطة الحريري وهو ما حاول الحريري أن يمنعه، إلا أنه فوجئ برد فعل حسن نصر الله.

حَمَّل نصر الله الأجهزة الأمنية مسئولية ما جرى، وهو ما أدهش الحريري الذي هاتف نصر الله وشكره على موقفه، والتقيا بعد ظهر ذلك اليوم في

حضور الوسيط السابق بينهما الصحفي مصطفى نصر والمعاون السياسي لنصر الله الحاج حسين الخليل وحارس الحريري الشخصيّ يحيى العرب"أبو طارق."

خلال الاجتماع تطابقت وجهتا نظر الرجلين حول قضايا عدة،لكن سيتضح في وقت لاحق أن هذا الاجتماع كان خدعةً كبيرةًللحريري، ولم يخرج عن كونه طمأنةً خادعةً لرجل لبنان القوي من خصمه في دمشق.

الحادي عشر من مايو2004م،يُنَفِّذ الرئيس الأمريكي بوش الابن بعض مواد قانون محاسبة سوريا مثل منع تصدير غالبية المواد إلى سوريا، وفرض حظر على الرحلات الجوية بين أمريكا وسوريا، وتجميد ممتلكات المسئولين السوريين الذين لهم صلات بالإرهاب أو"احتلال لبنان"، وحظر التعامل مع البنك التجاريالسوري.

صَرَّح رئيس الوزراء السوري محمد ناجي عطري في اليوم التاليبأن هذه العقوبات ظالمة وغير مبررة ولن يكون لها تأثير على سوريا،ولم يكن هذا الحدث خاتمة التصعيد الأمريكي ضد نظام الأسد الابن.

جرى أواخر ربيع 2004م نقاش بين أركان الإدارة الحاكمة في أمريكا حول جدوى استصدار قرار من مجلس الأمن بشأن التدخل السوري في لبنان،ورأت إدارة بوش أنها بحاجة لحليف غربي له مصالح خاصة في

لبنان، وكانت فرنسا هي الاختيار الأنسب؛ نظرًا لعلاقاتها التاريخية بلبنان من ناحية، ومن ناحية أخرى لعلاقات الحريري الحميمة بجاك شيراك.

شكلت المعارضة الشعبية المتنامية للوجود السوريفي لبنان حافزًا لإدارة بوش لاتخاذ خطوات أكثر ارتباطًا بالشأن اللبناني من ذي قبل،وكان ذلك بسبب تأسيس تيارات سياسية معارضة للنظام السوري خلال 2004م مثل حركة اليسار الديمقراطي،وظهرت مؤلفات تعارض بشكل صريح الوجود السوري في لبنان،مثل كتابي الصحفي المعارض لسوريا سمير قصير:

(عسكر على مين) و(ديمقراطية سوريا واستقلال لبنان).وهكذا عقد الرئيس بوش العزم على ممارسة ضغط فعال على سوريا لتترك لبنان وشأنه، متسلحًا بفكرة نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط للقضاء على الإرهاب.

في السادس من يونيو 2004م، وخلال الاحتفال بالذكرى الستين لمعركة نورماندي التي حسمت الحرب لصالح الحلفاء،اتفق بوش وشيراك على التعاون بينهما لإصدار قرار من مجلس الأمن بشأن التدخل السوريفي لبنان، خصوصًا مع اقتراب موعد الانتخابات الرئاسية والتي شك الأمريكيون أن بشارًا سيترك لحود يرحل عبرها.

في نفس الشهر تَلَقّى الحريري ضماناتٍ من السعودية ومصر بأن بشارًا لن يمدد ولاية لحود،ودعم بشار هذه التطمينات خلال تصريح أدلى به لصحيفة كويتية أعلن فيه أن سوريا ستدعم أي رئيس سيختاره الشعب اللبناني،لكن إدارة بوش بقيت على شكها في نوايا بشار.

مدعومًا بما تَلَقّاه من وعود،أعد الحريري قائمةً بأسماء المرشحين للرئاسة الذين يوافق عليهم النظام السوري،لكن بحلول منتصف أغسطس 2004م وخلال إجراء بشار مشاورات مع الساسة اللبنانيين حول مرشحي الرئاسة ظهرت دلائل متزايدة على إمكانية التمديد للحود،الأمر الذي أقلق الحريري وأربك حساباته.

أقلق ذلك الأمر أيضًا عبد الحليم خدامًا وغازي كنعان اللذين حذرا بشارًا من تبعات قرار التمديد للحود،وكان خدام أكثر قلقًا في هذا الشأن،وقبيل سفره لباريس في الثامن عشر من أغسطس 2004م طمأن بشار (خدامًا) بأنه لا تمديد للحود؛ لأن هذا الأمر يواجه معارضةً لا تلين في الداخل والخارج،ولأنه - أي بشار- غير موافق على الأمر من الأساس.

في لبنان أكدت المراجع الروحية للطوائف اللبنانية المختلفة رفضها التمديد،وفي الثاني والعشرين من أغسطس 2004م صرَّح بطريرك الموارنة نصر الله صفير بأن التمديد للحود سيعصف بالقلة المتبقية من الديمقراطية التي يتباهى بها لبنان.

في نفس اليوم، صدر بيان مشترك صدر عن محمد رشيد قباني مفتي السُّنّة وعبد الأمير قبلان رئيس المجلس الإعلاميالشيعي الأعلى رفضهما خرق الدستور والتمديد للحود.

بناءً على ما سبق، أكد بشار بعدها للحريري أنه لن يجدد للحود، وأبلغ الحريري بدوره حسن نصر الله بوعد بشار، لكن أمين عام حزب الله كان له رأي آخر.

تَوَجَّه نصر الله إلى دمشق للقاء بشار، وطلب من الرئيس السوري أن يمدد ولاية لحود الذي وصفه بـ"الداعم للمقاومة كُلِّيًّا" وأنه لن يوجد مسيحي آخر مثله يدعم الحزب كما فعل، ولأنه من المعروف عن بشار اتخاذ قراره النهائي بعد الاستماع لآخر شخص التقى به؛ قَرَّر بشار التمديد للحود.

استدعى بشار الأسد النائب اللبناني الموالي له إيلي الفرزليوأخبره بما انتهى إليه حول تمديد ولاية لحود، انتقد الفرزليهذا القرار، فأخبره بشار بنية بوش وشيراك إخراجه من لبنان وهو يريد من لبنان مساندته في وجه هذه الرياح العاتية.

هنا سأل الفرزلي بشارًا مستنكرًا:

وهل لا يوجد في لبنان سوى لحود ليفعل ذلك؟

رد بشار في اقتضاب:

"هذا ليس وقت تجربة."

بعد نحو أسبوع من هذه الواقعة، وخلال الاستعداد الدولي لإصدار قرار من مجلس الأمن بشأن لبنان،أعلن إميل لحود للمرة الأولى منذ طفا موضوع التمديد على السطح أنه موافقعلى قبول ولاية ثانية إذا أقرت الأغلبية النيابية بذلك،وبدأ بشار يهيئ المسرح لبقاء لحود في قصر بعبدا الرئاسي.

استقبل بشار رفيق الحريريفي دمشقبعد ظهر السادس والعشرين من أغسطس 2004م، وأبلغه أن التمديد للحود سيتم،اعترض الحريري مطالبًا بمناقشة الموضوع.

رد بشار بألا شيء نناقشه،وقال للحريريفي حدة:

"أنا لحود ولحود أنا،وإذا كان صديقك شيراك يريدني خارج لبنان سأحطم لبنان قريبًا على رأسك ورأسه ولن أتراجع عن كلامي."

عقد أسلوب بشار العدائي لسان الحريري، بينما واصل بشار تحديه قائلًا:

"أنا مع لحود وأنت مع من؟هل أنت معي أم مع إسرائيل؟."!

اعترض الحريري على هذا الأسلوب المهين، وقال لبشار:

"أنا صديق لسوريا منذ عشرين عامًا،عليك الاستماع إليَّ."

رَدَّ بشار باستخفاف:

"عرفتك منذ أربع سنوات فقط،وعليك أن تختار بين مساندة سوريا ومعارضتها، لديك ثمان وأربعين ساعةً لتبلغ رستم غزالة بردك."

ثم هدد الحريري ثانيةً بقوله:

"من يقف في وجه سياساتي سأطحنه."

لم يستمر لقاء الاثنين أكثر من ربع ساعة،وعقب مغادرة الحريريكان خدام عائدًا للتو من باريس، وسأل بشارًا عما داربينه وبين الحريري، فَرَدَّ بشار هازئًا:

"الحريري يعبث،يعتقد أنه يستطيع فرض رئيس لبناني عليَّ."

طلب بشار من وزير خارجيته فاروق الشرع أنيجتمع مع وزير خارجية الاتحاد الأوروبي المكلف بمراقبة الشأن اللبناني ميجيل أنخيل موراتينوس؛ ليبلغه بأن سوريا ستطلب من رئيس مجلس النواب اللبناني نبيه بري تأجيل عقد الانتخابات في لبنان تجنبًا لصدور القرار1559.

obeikandl.com

علم موراتينوس بالأمر، وعرضه على رئيس الوزراء خوسيه لويس ثاباتيرو الذي طلب من الشرع أن يحادثه بشار شخصيًا،وأبلغ الشرع الأسد بالطلب الإسباني.

تحدث بشار مع ثاباتيرو بلهجة انكسارية ذليلة طالبًا منه منع صدور القرار الدولي المرتقب؛لأنه يتضمن سحب القوات السورية من لبنان، مع تَعَهُّد من بشار بعدم التمديد للحود.

بالتنسيق مع فرنسا والولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا نجحت إسبانيا في تأجيل صدور قرار مجلس الأمن بشأن لبنان انتظارًا لانتخاب اللبنانيين رئيسًا جديدًا،اتصل بعدها موراتينوس بالشرع ليطلب منه إخبار نبيه بري بتأجيل جلسة انتخاب رئيس لبنان، فإذا بالشرع يقول له:

"لبنان بلد ذو سيادة يقرر ما يجب أن يفعله،تحدثوا مع بريفي هذا الشأن."

رد موراتينوس متسائلًا:

"الآن أصبح لبنان بلدًا مستقلًا،لم اتصل رئيسك بثاباتيرو ما دام الأمر هكذا؟."!

omeikandi.com

لكن موراتينوس ضغط على نفسه واتصل ببري، وطلب منه تأجيل عقد جلسة الانتخاب،فَرَدَّ عليه بري:

"نحن دولة لا تسمح لأحد بأن يتدخل في شئونها."

بعدما عاد الحريري لبيروت مَرَّعلى منزل جنبلاط في كليمنصو ببيروت الغربية،وجده الحريري مجتمعًا مع أربعة من حلفائه السياسيين كان من بينهم غازي العريضي حيث أخبره بما داربينه وبين بشار،وكان مما قاله بشارللحريري:

"لنا مواجهة ثانية مع جنبلاط،لجنبلاط دروزولنا دروزنا أيضًا، وسنحدث فوضى عارمةً في جبل لبنان."

رد جنبلاط على الحريري:

"أفهم الوضع الذي أنت فيه، وحاول ألا تختلف مع السوريين،ومن جانبي لن أوافق على تمديد الولاية."

نصح جنبلاط الحريري قائلًا:

"اركب طائرتك وغادرإلى فرنسا."

وعندما رفض الحريري قال له جنبلاط:

obeikandl.com

"اقترح لصالح التمديد للحود،لن تقوى على مجابهة بشار الذي يكرهك لأنك سُنِّيٌّ قوي وهو ما يخيفه."

فَضَّل الحريري ألا يعود لمنزله فيقريطم مفضلًا الذهاب لمنزله الآخر في منتجع فقرا، وهناك التقاه وزير خارجيته السابق فارس بويز،وجد بويز رئيس الوزراء مكتئبًا،فسأله عما جرى، فَرَدَّ عليه الحريري بأن بشارًا سيمدد للحود تحت أي ظرف،هنا سأله بويز:

هل شرحت لهم فداحة ذلك القرار على بلدينا؟

ثم سأله بويز ثانيةً:

هل أوضحت لبشار معارضتك التامة لهذا القرار؟

رد عليه الحريري وهو يذرف دموع الحسرة:

"فارس،لِمَ تُصِر على إذلالي؟."!

اعتذر بويز الذي فوجئ برد فعل الحريري وسأله:

ماذا ستفعل؟

رَدَّ الحريري:

opeikandi.com

هل تعتقد أن لديَّ خيارًا آخر؟

طلب منه بويز أن يسافر لباريس، وبذلك يقطع الطريق على مجلس النواب لعقد جلسة التمديد،رَدَّ عليه الحريري والحزن يقطر من كلماته:

"من السهل عليك قول هذا الكلام،لو فعلت ذلك ستكون القطيعة النهائية مع السوريين، ولن أتحمل عاقبتها."

كان الحريري يرى أن الاستقالة من رئاسة الحكومة لتجنب التمديد للحود سيجعل بشارًا يصب جام غضبه عليه،وقد أخبر أحد الدبلوماسيين الغربيين الحريري أن النظام السوري أعد عشرين سيارةً مفخخةً لتفجيرها حول بيروت مالم تصوت كتلته النيابية بالتمديد للحود.

شعر الحريري بالخوف من شلالات دماء سيصنعها السوريون مالم يسايرهم؛ لذا أبلغ الحريري رستم غزالة في السابع والعشرين من أغسطس بموافقته على التمديد للحود، ونافقه غزالة ووصفه بـ"الوطني الحقيقي"،ووعده غزالة بأن يستمر كرئيس للوزراء مع تركه يشكل حكومته دون أدنى تدخل من دمشق.

انعقد مجلس الوزراء اللبناني في الثامن والعشرين من أغسطس،وتَخَلَّف عن الحضور أربعة وزراء من الوزراء الثلاثين، وأُدْرِج موضوع واحد على

جدول أعمال الاجتماع وهو التصويت بالموافقة على طلب التمديد قبل جلسة البرلمان.

عَلّل الحريري ذلك بأن الأوضاع تتطلب إجراءاتٍ استثنائيةً مما يحتم استمرارية القيادة في هذه المرحلة،ووافق المجلس باستثناء ثلاثة وزراء تابعين لكتلة وليد جنبلاط، وانتهى الاجتماع بعد عشر دقائق،لكن ردود الفعل تجاهه كانت نارية.

وصف مرشح الرئاسة مخايل الضاهر موافقة مجلس الوزراء بعملية تهريب في ليلة لا قمر فيها،ووصف جنبلاط رفضه الحضور بأنه لرفضه تواجده مع مشاغبين عسكريين،وغضب الرئيس الفرنسي جاك شيراك أيّما غضب، وشعر أن بشارًا يتلاعب به؛ لذا قرر أن يرد الصفعة لبشار في مجلس الأمن.

حدث كل هذا فيما كان فاروق الشرع يطمئن رئيسه بأن القرار الدولي لن يصدر؛ لأنه لن يحصل على ثلثي أصوات مجلس الأمن،بالإضافة لما سمعه الشرع من أحد وزراء الحريري الموالين لدمشق من أن إدارة بوش ستغض الطرف عن التمديد للحود.

أخبرهم هذا الوزير بأنه زار واشنطن وأبلغ أركان نظام الأسد بأنه التقى مسئولين أمريكيين ولم يمانعوا،وأنه رغم الضغوط الدولية إلا أن الأمور

onleikandil.com

تصب في مصلحة سوريا،لكن ما هى إلا أيام قليلة حتى وقع ما كان يخشاه بشار.

بتنسيق بين واشنطن وباريس وبتأييد من لندن،أصدر مجلس الأمن قرارًا دوليًا بشأن الأوضاع في لبنان حمل رقم 1559 في الثاني من سبتمبر 2004م، دعا لانسحاب القوات السورية من لبنان بشكل كامل،والكف عن التدخل السوري في الشأن اللبناني، والدعوة لعقد انتخابات رئاسية نزيهة،غير أن إدارة بوش دَسَّت سُمَّها في عسل هذا القرار.

أخطر بند تضمنه القرار هو نزع سلاح ما أسماه "الميليشيات المسلحة" في إشارة لحزب الله،وإبعادها عن الحدود اللبنانية الإسرائيلية على أن يحل الجيش اللبناني محلها.

كان رفيق الحريري على علم بصدور القرار في مرحلة مبكرة قبل صدوره؛ نظرًا لتنسيقه المستمر مع جاك شيراك للضغط على نظام الأسد ليرفع يده عن لبنان،لكن الحريري صُعِق بذلك البند الذي رأى أنه سيفجر الوضع في لبنان عمومًا وبين السُّنَّة والشيعة خصوصًا.

فقد الأسد صوابه جَرَّاء ذلك القرار الأُمَمِيّ،واتهم الحريري عبر رستم غزالة بأنه من صاغ القرار 1559 مع مروان حمادة ومبعوث الأمم المتحدة لبغداد

غسان سلامة،نفى الحريري وحلفاؤه ذلك مرارًا لكن دون جدوى،ومن يومها أضحى الحريري عدوًا صريحًا لنظام الأسد.

وصف فاروق الشرع هذا القرار بالتافه والذي لا قيمة له،وقرر بشار أن يضرب عرض الحائط بهذا القرار ويجعل التمديد للحود أمرًا واقعًا رغمًا عن أنف الجميع، وكان مجلس النواب هو الجهة التي ستضع قرار الأسد موضع التنفيذ.

صدرت الأوامر لنبيه بري بوضع قرار التمديد للحود على جدول أعمال جلسة الثالث من سبتمبر 2004م،أي بعد يوم من صدور القرار 1559؛وذلك للحصول على موافقة نواب المجلس على تعديل المادة الخاص بالتمديد لرئيس الدولة،واستلزم ذلك الحصول على ثلثي أصوات أعضاء المجلس المائة والثمانية والعشرين.

ضمن بشار أصوات سبعة وسبعين نائبًا هم الموالون لدمشق،وكان بحاجة لأصوات تسعة نواب آخرين للوصول إلى ثلثي أعضاء المجلس،وعَلَّق بشار أمله على كتلة الحريري البالغة ثمانية عشر نائبًا،وأصدر الحريري أمرًا لكتلته النيابية بالتصويت لصالح التمديد، لكن بقيهناك من النواب من يرفض الانصياع لرغبة الأسد،وكان التهديد هو دواؤهم الشافي.

رَفَضَ النواب:

مصباح الأحدب "السُّنّيّ عن طرابلس"، وبطرس حرب "الماروني عن البترون شمال لبنان"،وغطاس الخوري "الماروني عن بيروت" الاقتراع لصالح التمديد للحود؛ فَتَلَقّى الأحدب هو وزوجته تهديدًا بالقتل.

أُرْسِلَت رسائل فاكس تهدد بالويل والثبور لبطرس حرب،أما غطاس خوري النائب عن كتلة الحريري وأحد مستشاريه فقد تَلَقّى تهديدًا بالقتل وهو وعائلته في اتصال هاتفي تَلَقّاه بعد منتصف الليل.

بعد سيف المعز استخدم بشار ذهبه،وحتى يضمن بشار موافقة نواب آخرين أقل معارضةً للتمديد وجد أن الجزرة السورية ستكون أفضل من عصا المخابرات الغليظة، واعتبر أن تعدد وسائل الترغيب سيفيده في إقناع هؤلاء الرافضين.

عرض على بعضهم رفع الحظر على أنشطتهم الاقتصادية مقابل الاقتراع للتمديد،فيما تَلَقّى البعض الآخر اتصالاتٍ من جميل السيد ورستم غزالة بالحصول على مناصب عليا في الدولة مقابل الموافقة على التمديد،وهناك من النواب الوطنيين من أغلق هواتفه بشكل كامل ليقطع أي اتصال مع السوريين.

وافق مجلس النواب على التمديد للحود بأغلبية ستة وتسعين نائبًافي مقابل رفض تسعة وعشرين،وبعد ثمانية أيام من التمديد أدلى الأمريكيون بدلوهم والذي لم يعجب القيادة السورية.

الحادي عشر من سبتمبر2004م،زار دمشق ويليام بيرنز نائب وزير الخارجية الأمريكي والتقى بشارًا الأسد وعددًا من أركان نظامه؛لإبلاغهم موقف الإدارة الأمريكية الرافض للتدخل السوري في الانتخابات اللبنانية،وعلى الرغم من نفي الأسد لهذا الاتهام والابتسامات الدبلوماسية للرجلين كان التوتر سيد الموقف بين الدولتين.

الثالث عشر من سبتمبر2004م،تَلَقّى نظام الأسد طعنةً نجلاء بإعلان دول مجلس التعاون الخليجيدعمهم للقرار1559، مطالبين سوريا بالإذعان لقرارته وبالتحديد الانسحاب من لبنان،وزاد الشرخ اتساعًابين الخليج ودمشق على خلفية دعم دوله للحريري.

في نفس اليوم فرض الكونجرس الأمريكي المزيد من الضغوط على نظام دمشق،فصدر قانون بمساعدة الحكومة اللبنانية على التخلص مما سماه الكونجرس "الاحتلال السوري للبنان"،ووجد بشار أنه من الحكمة إحناء رأسه للعاصفة.

حاول بشار إظهار نظامه بمظهر المنصاع للشرعية الدولية، وفي الحادي والعشرين من سبتمبر 2004م نَفَّذَت القوات السورية عملية انتشار جديدة انسحب على إثرها خمسة آلاف جندي، وتبقى خمسة عشر ألفًا تمركزوا في شرق سهل البقاع وكان في الوقت نفسه يخطط لتأزيم الوضع المتأزم أصلًا في جاره الصغير.

في الثاني والعشرين من سبتمبر 2004م، أعلن وزير الداخلية اللبناني إلياس المر أن أجهزة الأمن فَكَّكَت خليةً للقاعدة كانت بصدد تفجير السفارة الإيطالية والقنصلية الأوكرانية في بيروت، وتسببت هذه العملية في مخاوف جديدة للحريري.

رأى الحريري في هذه الحادثة تهديدًا سياسيًا من السوريين قبل أن تكون عملًا إرهابيًا، وذلك لأنه من المستحيل نقل كمية كبيرة من المتفجرات للقيام بهكذا عملية دون المرور على الحواجز العسكرية السورية، وقد حدث ذلك بعدما وافق الحريري على التمديد، فما بالك إذا لم يوافق؟

انتظر الحريري إيفاء السوريين بوعدهم فيما يخص تشكيله للحكومة الجديدة، وبالفعل سَلَّم الحريري للحود قائمةً من ثمانية عشر وزيرًا سيكونون أعضاءً في حكومته الجديدة كما يقضي الدستور وعرضها على لحود، وبدوره مرر لحود القائمة للسوريين ليوافقوا عليها.

مارس بشار هوايته المفضلة في فرض إرادته على الحريري،وحذف من التشكيلة الوزارية العديد من الأسماء التي قدمها الحريري، وضَمَّنَهَا وزراء من الموالين له، وارتفع عدد الوزراء من ثمانية عشر وزيرًا إلى أربعة وعشرين وزيرًا،انفجر بعدها الحريري غاضبًا وقال:

"كفى،لن أشارك في هذه اللعبة بعد الآن."

طلب السوريون من الحريري التَّجَلُّد حتى الأول من أكتوبر موعد صدور تقرير الأمم المتحدة حول تطبيق القرار 1559،ولم يكن أمام الحريري خيار؛ فالمواجهة مع السوريين لن تكون في صالحه على الإطلاق.

بعد عدة أيام ناقش فؤاد السنيورة صديقه الحريري حول خططه لمواجهة تداعيات التمديد،لكن السنيورة فوجئ بالحريري وقد ارتمى في أحضانه باكيًا، فَهَدَّأَه معتذرًا عما بدر منه، وأدرك السنيورة أن جراح الحريري من التمديد لن تندمل أبدًا.

أواخر سبتمبر 2004م،ألقى بشار الأسد خطابًا في دمشق وَجَّه من خلاله نقدًا ضمنيًا لوليد جنبلاط،ذلك بأن ذَكَّرَ المسيحيين في خطابه بأن الجيش السوري دخل عام 1976م ليحميهم من أيدي من يذبحونهم باسم العدالة والتقدم والاشتراكية، قاصدًا بذلك الحزب التقدمي الاشتراكي الذي تناوب على رئاسته الجنبلاطان:

obeikandl.com

كمال الأب ووليد الابن.

لم ينس بشار لوليد إفساد الأخير دعوته لزيارة قصر الشعب الجمهوري في دمشق مقابل موافقة النواب الدروز على التمديد للحود والتي رَتَّبَهَا رستم غزالة بعدما رفض أن يُعْلم غزالة بما سيقوله لبشار، معتبرًا أن هذه المقابلة رشوة سياسية لتمرير التمديد للحود.

في خِضَمِّ ذلك حاول الحريري تهدئة الأجواء الدولية المحتقنة ضد نظام الأسد،وتوجه إلى باريس في الثلاثين من سبتمبر 2004م،والتقى جاك شيراك الذي كان في أوج غضبه مما حدث خلال الفترة الماضية،وفَضَّل الحريري مصارحة شيراك بما يحدث عله يساعده.

شرح الحريري لشيراك ملابسات اقتراعه لصالح التمديد للحود،وطلب من شيراك أيضًا ألا يُصِرَّ كثيرًا على القرار 1559،وقبيل نهاية اللقاء قال شيراك لضيفه إنه تَفَهَّم الضغوط التي تَعَرَّض ويتعرض لها الحريري،وأمل ألا يؤثر تطبيق القرار 1559 على استقرار لبنان.

صَرَّح الحريري خلال المؤتمر الصحفي الذي تلى الزيارة بأن لبنان يمر بمرحلة صعبة وحرجة،وأن حديثه مع شيراك كان صريحًا لأبعد الحدود، وبينما كان الحريري في باريس وقع حادث مروع لكن ذو دلالة على الغضب السوري عندما يرتدي ثوب الانتقام.

صباح الأول من أكتوبر 2004م،تحرك النائب والوزير مروان حمادة برفقة سائقه أسامة عبد الصمد ومرافقه الأمني غازي بوكروم، وعند السير في الطريق باتجاه الطريق البحريفي بيروت،انفجرت سيارة على الجانب الآخر من الطريق مما أشعل النار في مؤخرة سيارة حمادة.

انكسرت قدم حمادة لدى قفزه خارج السيارة ناجيًا بحياته،وبعد ثوان من قفزه وصلت النيران لخزان وقود السير لتتحول السيارة لكتلة من اللهب،فيما قُتِلَ غازي بوكروم في الانفجار، بينما نُقِل حمادة لمستشفى الجامعة الأمريكية في بيروت.

وصل الخبر لوليد جنبلاط الذي كان مجتمعًا وشيوخ عقل طائفته الدرزية "رجال الدين الدروز" وفهم جنبلاط على الفور الرسالة القاسية من السوريين،إنها رسالة ثلاثية:

فهي رسالة لوسائل الإعلام اللبنانية المناهضة لدمشق كون حمادة يعمل في صحيفة النهار، ورسالة كذلك لفرنسا كون حمادة حاملًا للجنسية الفرنسية، وكذلك لجنبلاط لأنه المعارض الصريح للنهج السوري في لبنان.

تحرك جنبلاط لمستشفى الجامعة الأمريكية فور علمه بالحادث،وتَلَقّى هناك اتصالًا من الحريري المتواجد بباريس الذي قال له إنه عندما يصل

للمستشفى سيجد سيارةً مرسيدس مصفحةً من تلك التي يملكها الحريري في انتظاره، طالبًا منه استخدامها الآن.

في المستشفى التقى جنبلاط بعبد الحليم خدام صديقه الوفي ليطمئن منه على حالة حمادة التي لم تكن على ما يُرَام، خرج حمادة من الانفجار بضلوع مكسورة ونزيف تحت غشاء الأم الجافية بالمخ وأربعمائة وخمسين قطبةً في رأسه ووجهه وحروق شديدةفي يده.

عقب هذه الحادثة، تَلَقّى ضباط التحقيق التابعين لقوى الأمن الداخلي اتصالًا هاتفيًامن رستم غزالة أخبرهم فيه أن مرتكبي حادثة اغتيال حمادة إسرائيليون ولا داعي لفتح تحقيق، وتخَطَّ غزالة حدود المنطق بقوله لهؤلاء الضباط إن حمادة ربما يكون قد دبر الحادثة للفت الانتباه إليه.

في نفس يوم الحادثة صدر تقرير الأمم المتحدة حول تطبيق السوريين للقرار 1559، وكان بشار قلقًا أن يُشَرِّع هذا القرار لصدور قرار آخر يزيد الأوضاع سوءًا على سوئها، وأشار القرار إلى عدم إيفاء السوريين بمتطلبات القرار اللهم إلا إعادة الانتشار اليتيم الذي تم في الشهر السابق.

كانت الهوة في دمشق تتسع بين بشار والحريري من ناحية، وبين بشار وعبد الحليم خدام من ناحية؛ لأن خدامًا رفض رفضًا قاطعًا قرار بشار بالتمديد للحود، ورأى أن هذا الأمر سيضر بمصالح النظام في لبنان.

واقترح خدام استقالة لحود بعدما مدد له، وأن يسمح الأسد للبنانيين باختيار رئيسهم دون تدخل منه،وطمأنه بأن الرئيس الجديد لن يحكم إلا برضا دمشق عنه بقوله:

"حتى رفيق الحريري سيختار مسيحيًا ترضى أنت عنه."

لكن بشارًا صَمَّ أذنيه عن النصيحة وأخذته العزة بالإثم،ولم ير أمام عينيه إلا خنق استقلال لبنان؛ ليثبت لكبار اللبنانيين وصغارهم أنه الآمر الناهي، وأفسد مبادرةً أطلقها الحريري للتصالح مع ميشيل عون المنفيفي باريس،وكعادته أراد بشار الظهور بمظهر المهيمن على سير الأحداث.

وبدلًا من مبادرة الحريري،أرسل بشار لعون ممثلين من حلفائه لمنفى العماد في باريس هما كريم بقرادوني عضو حزب الكتائب وإميل إميل لحود نجل رئيس الدولة، وحاول الاثنان إقناع عون بالعودة.

لكن عون صاحب التاريخ الطويل من العداء مع دمشق رفض الدعوة تاركًا لنفسه حرية تحديد موعد عودته التي قرر أن تكون نهائيةً. ينخرط فيها هذه المرة في الصراع السياسي اللبناني ليكون رئيس البلاد كما تمنى قبل خمسة عشر عامًا.

في التاسع من أكتوبر 2004م،انفجرت قنابل صوتية بالقرب من قصر كمال جنبلاط في بلدته المختارة دون إحداث خسائر، وفهم جنبلاط أن هذا

الحادث قرصة أذن بسيطة من بشار الأسد عقابًا له على رفضه التمديد للحود.

بعد أقل من أسبوع تَلَقّى جنبلاط تحذيرًا آخر لكنه من صديق قديم هذه المرة، ففي الخامس عشر من أكتوبر 2004م كان رئيس الأركان السوري السابق حكمت الشهابيفي طريقه للمغادرة النهائية لأمريكا عبر مطار بيروت، وهناك التقى بوليد جنبلاط وقال له ثلاث مرات:

"انتبه على نفسك."

كان تقرير الأمم المتحدة السلبي عن التزام السوريين بالقرار 1559 هو المسمار الأخير في نعش علاقة الحريري بنظام الأسد، قرر بشار الاستغناء عن خدمات الحريري، وكلف نبيه بري القيام بهذه المهمة خاصةً بعد تعالي نبرة الحريري المعارضة لدمشق خلال الفترة الماضية.

العشرون من أكتوبر 2004م، التقى بري الحريري مُخَيِّرًا الحريري بين تخفيف لهجة خطاباته ضد السوريين، أو أن سبعةً من وزراء حكومته الموالين لبري ولحود سيعتكفون، وعلى مبدأ بيدي لا بيد عمرو عاد الحريري لمنزله في قريطم وكتب استقالته في حضور ثلاثة من زملائه.

كان بديل الحريري جاهزًا،وعلى الفور تَوَلّى عمر كرامي رئاسة الوزراء خلفًاللحريري، وهي الخطوة التي وصفها وزير الخارجية الأمريكي كولن باول بغير الملائمة. لكن الحريري كان ينظر إليها كاستراحة محارب.

عقد الحريري العزم على الفوز في الانتخابات النيابية المقرر لها مايو 2005م؛ ليضع النظام السوري أمام الأمر الواقع وهو أنه رئيس الحكومة رغمًا عنه، وأن العلاقة ستكون في هذه الحالة علاقة ندية لا تبعية كما درجت العادة.

زاد بشار من تضييقه على الحريري،وبأوامر من رستم غزالة للّواء علي الحاج خفض عدد الضباط المكون من أربعين ضابطًا لثمانية ضباط فقط،ولم يهتم الحريري للأمر؛ كونه يتخذ تدابير وقائية كامتلاكه طاقمًا أمنيًا خاصًا وسيارات مصفحة تقاوم الإشارات الإليكترونية التي قد تستخدم لتفجير العبوات الناسفة.

لم يُرِد الحريري الظهور بمظهر المعارض بشكل كامل لسوريا حتى لا يعطي السوريين الذريعة ليطلقوا عليه كلابهم المسعورة،وعلى الرغم من اتصاله عبر وسطاء بتَجَمُّع قرنة شهوان المسيحي،مع إفراد وسائل الإعلام المملوكة للحريري مساحاتٍ كبيرةً للمعارضين للنظام السوري.

نهاية نوفمبر 2004م، وصلت الأوامر لحزب الله باستعراض النفوذ السوري في لبنان، وباشتراك مع الحكومة اللبنانية تجمع مائة ألف متظاهر لبناني في بيروت دعمًا للنظام السوري ورفضًا للتدخل الدوليفي الشأن اللبناني،وعمد حسن نصر الله لطمأنة الحريري بعدم استهداف هذه المظاهرات للمعارضة.

في المقابل أخبر الحريري نصر الله أنه مع اتفاق الطائف لا القرار 1559،وطمأنه كذلك إلى أنه سيقنع المجتمع الدولي بعدم التدخل فيما يخص المقاومة اللبنانية لأنها شأن داخلي واستمر الحريريفي طريقه،وبحلول ديسمبر 2004م أبصر تجمع لبناني معارض جديد النور.

خلال مؤتمر صحفي عُقِد في فندق البريستول ببيروت الغربية،أُعْلِن عن تأسيس اللقاء الديمقراطي والذي عرف لاحقًا بتجمع البريستول،وقد ضَمَّ هذا التجمع شخصياتٍ من المعارضين السُّنَّة والموارنة، مثل:

نواب وليد جنبلاط في الحزب التقدميالاشتراكي، ونواب القوات اللبنانية التي يتزعمها سمير جعجع المسجون منذ عشر سنوات، ونائبين عن تيار المستقبل،وعددًا من الشخصيات اليسارية والعلمانية.

لم ينظر نظام الأسد بعين الرضا لهذا التجمع المعارض،واستخدم كعادته عصاه الغليظة ليمنع هذه المعارضة الوليدة من الخروج عن النص.

obeikandi.com

عقب انتهاء الاجتماع التأسيسي للقاء البريستول،ألقى راكب دراجة نارية بإصبع ديناميت على مكتب تابع للحزب التقدميالاشتراكيفي وطى المصيطبة ببيروت،ولم يتحير المعارضون في تحديد الفاعل.

لم يَخَف الحريري من هذا التهديد المبطن من المخابرات السورية،واستمر في دعم تجمع البريستول، حيث حضر النائب عن كتلة الحريري غطاس خوري وحليفه ووزير الاقتصاد في حكومته باسل فليحان اللقاء الثاني للتجمع في الثامن والعشرين من ديسمبر2004م.

أوائل يناير2005م،أرسل بشار الأسد وليد المعلم نائب وزير الخارجية إلى بيروت بزعم القيام باستشارات مع ممثلي الحكومة والمعارضة، واعتقد بعض الساسة اللبنانيون أن هذه الخطوة قد تؤدي لانسحاب القوات السورية إلى البقاع بدلًا من الانسحاب الكامل في القرار1559.

في نفس التوقيت عين الأمين العام للأمم المتحدة المبعوث السابق للشرق الأوسط تيري رود لارسن لمراقبة تطبيق القرار1559،وخلال تواجده في لبنان التقى لارسن وليد جنبلاط وأخبره أنه سمع كلامًا قاسيًا من السوريين ضده وضد الحريري قائلًا له:

"احذريا وليد،فهم سيقتلونك أو يقتلون الحريري."

خلال زيارة قصير قام بها الحريري لباريس، أدلى الحريري بتصريح للارا مارلوي المحررة بجريدة أيريش تايمز الأيرلندية أخبرها فيه بأن المعارضة لو فازت بستة وأربعين في المائة من مقاعد البرلمان وانضم إليهم أربعة في المائة من بقية النواب فستشكل الحكومة، ولن يتمكن السوريون من تزوير الانتخابات نظرًا للحضور الإعلامي العالمي المكثف.

بدا نظام الأسد عاجزًا عن القيام بشيء ضد احتمالات الفوز الساحق للحريريفي الانتخابات النيابية القادمة، ومن جانبه لم يُضِع الحريري الفرصة وبدأ في إقامة تحالفاتٍ انتخابيةً وعزز عدد مؤيديه، وبناءً على ذلك التقى رؤساء البلديات وأعضاء النقابات المحلية.

أشارت المعلومات التي تَلَقَّاها مقر الحملة الانتخابية للحريري إلى أنه سيحرز نصرًا مُؤَزَّرًا في المناطق السُّنِّيَّة والمسيحية والدرزية في لبنان، فيما سيفوز حلفاء دمشق في الجنوب وضاحية بيروت الجنوبية، وعقد الحريري أملًا على انسحاب السوريين لسهل البقاع ثم تشكيله الحكومة.

هدد ذلك الأمر بتقليص نفوذ بشار ولحود في لبنان، وبناءً على ذلك أرسل بشار رستم غزالة للقاء الحريريفي منزله بقريطم في التاسع من يناير 2005م؛ ليعرض عليه صفقةً اعتبر بشار أنها ستفيد الطرفين.

عرض غزالة على الحريري ألا يضع وزير الداخلية سليمان فرنجية قانونًا انتخابيًا ضد الحريري، وألا يخوض الحريري الانتخابات على مستوى لبنان ككل ولكن على مستوى بعض الدوائر، على أن يرشح الحريري على قائمته الانتخابية خمسة أو ستة نواب موالين لسوريا.

رفض الحريري طلب غزالة،وهنا خرج غزالة غاضبًا من منزل الحريري، وعقب مغادرة غزالة أجرى الحريري اتصالات هاتفية بثلاثة نواب حاول السوريون أن يفرضوهم على كتلة الحريري النيابية،وأعلمهم أنهم لن يشاركوا على لائحته الانتخابية.

جهز السوريون خطةً لاعتقال الحريري وجنبلاط عقب زيارة غزالة،وكمسوغ للاعتقال اتُّهِم الحريري بأنه عميل إسرائيلي وأن جنبلاط هو من اغتال رينيه معوض، ولتهيئة الأجواء لعملية الاعتقال اتصل سليمان فرنجية بنائلة معوض عقيلة الرئيس المغتال وأخبرها بأن من قتل زوجها هو جنبلاط.

فهمت نائلة اللعبة، وزارت جنبلاط لتحذره مما أضمره السوريون له وللحريري،لكن السوريين أحجموا عن تنفيذ الاعتقالات نظرًا للاهتمام الدولي المتعاظم بلبنان،وبدلًا من ذلك جهز السوريون الخطة البديلة لتكتيف الحريري،وحتى يظهر النظام السوري بعيدًا عما يجري بشأن الانتخابات، تولت الأجهزة الأمنية اللبنانية تعقيد مهمة الحريري.

الرابع والعشرون من يناير 2005م، أعلن سليمان فرنجية وزير الداخلية الحليف لسوريا عن القانون الذي سَتُجْرَى على أساسه الانتخابات، واختير القضاء بدلًا عن المحافظات الكبيرة كحل يرضي المسيحيين، وفي محاولة لتقليل فرص فوز الحريري قسم فرنجية بيروت لثلاث مناطق أضعف فيها التمثيل السُّنّيّ لصالح الشيعة والموارنة الموالين لسوريا.

ولم يكن الحال أفضل في صيدا مسقط رأس الحريري، وبدلًا من إجراء الانتخابات على أساس دائرتين واحدة لمركز المدينة السُّنّيّ والثانية لضواحيها الشيعية، ضُمَّت الضواحي الشيعية للمدينة، وأصبحت المنطقتان دائرةً واحدةً لترجيح كفة تمثيل الشيعة على حساب الحريري.

أطلق وليد جنبلاط تصريحاتٍ ناريةً اعتبر فيها تقسيم بيروت عملًا لا طائل من ورائه ولن يعيق فوز المعارضة الساحق، وكان قلق السُّنَّة اللبنانيين يزداد مع الوقت على الحريري خوفًا من أية حماقة قد يقدم عليها السوريون، حتى إنهم طلبوا من الحريري تزويدهم بالسلاح للدفاع عنه وعن أنفسهم.

استنكر الحريري الدعوة ورفض مداهنة أبناء طائفته فيما طلبوه، فالسُّنَّة من وجهة نظره ليسوا أهل قتال بل أهل علم وتجارة وثقافة، ولهم حاضنة عربية تدافع عنهم إذا تهددتهم الأخطار قائلًا:

"أزودكم بالمال، أزودكم بالعلم، لكن بالسلاح لا."

الأول من فبراير 2005م،زار وليد المعلم بيروت للمرة الثانية خلال ذلك العام والتقى الحريري، وبعد السلام والتحية عاتب المعلم الحريريعلى دوره في القرار 1559،لكن الحريري احتج مؤكدًا ومتعجبًافي نفس الوقت من رفض السوريين لعرضه مساعدتهم في وجه الضغوط الدولية.

أبدى الحريري لضيفه ضيقه من التقسيم الانتخابي الذي صاغه سليمان فرنجية لتعجيزه عن الفوز في النتخابات القادمة ومِنْ ثَمَّ إفشال مساعيه لتشكيل الحكومة،لكن المعلم رد عليه بأن بشارًا اعتمد هذا التقسيم ليمنع وصول نواب "مسيحيين متطرفين" للبرلمان.

لكن الحريري لم يصدق هذا الادعاء معتبرًا أن ذلك مرده رغبة السوريين في شرذمة المعارضين لهم في لبنان،ورد المعلم بأنه ما لم يوضع هذا القانون سينشأ لبنان جديد معادٍ لسوريا، لكن الحريري رد عليه بأن لبنان وسوريا لا فكاك لأحدهما من الآخر.

شرح الحريري للمعلم أنه ليس ضد المصالح السورية في لبنان التي يتفهمها جيدًا،لكنه يريد أن تكون هذه العلاقة علاقة الأنداد وليس علاقة التابع والمتبوع.

مرةً أخرى عاتب المعلم الحريري وأبلغه غضب الرئيس السوري منه،دافع الحريري عن نفسه بأن ما وصل لبشار من معلومات إنما هو مغلوط كتبه أناس معروف عنهم مقت رفيق الحريري،فَرَدَّ المعلم أن الرئيس يخضع للتقارير مثل أي مسئول،وهنا رد الحريري بغضب:

"لأنه رفض مرةً بعد مرة طلبي بلقاء مباشر معه."

فَرَدَّ المعلم بصراحة لم يعهدها:

"اعترف لك أننا حشرناك في الزاوية، ولا تأخذ الأمر باستخفاف."

وجد الحريري أنه يُهَدَّد ضمنًا؛ فَرَدَّفي حدة:

"لن يُحْكَم لبنان أبدًا من سوريا،لن يحدث هذا بعد الآن."

غادر المعلم منزل الحريري بعدما وعده بأنه سيبذل قصارى جهده لرأب الصدع بينه وبين بشار،واستقر في عقل الحريري أنه وعد سينكص عنه بشار كما عَوَّدَه، وسرعان ما صدقت نبوءة الحريري.

بعد عدة أيام شن الساسة الموالون لسوريا هجومًا حادًا على رئيس الوزراء المستقيل،واتهمه الوزير الدرزي السابق طلال أرسلان بتمويل المعارضة

ضد رئيس الدولة ونعته بـ"ثعبان قريطم"،ثم وصفه سليمان فرنجية بمرشد المعارضة ومن يوجهها من وراء الكواليس.

نال وليد جنبلاط نصيبه من السباب هو الآخر عندما نعته عاصم قانصوه وزير العمل بالجاسوس الأجنبي والجاحد للأفضال،ومع ازدياد الهجوم عليه وعلى صديقه شعر الحريري أن أيامه على قيد الحياة باتت معدودةً.

ذات يوم انفرد الحريري بجنبلاط وقال له:

"إذا أرادوا إحداث اضطراب خلال الأسبوعين القادمين فسيقتلونني أو سيقتلونك."

وسط هذه الأحداث العاصفة كان خدام يتصل بالحريري يوميًّا،وكان حدس خدام ينبؤه أن الحريري سيُغْتَال خلال فترة قصيرة،وأكد له بشار هذا الإحساس بنهاية الأسبوع الأول من فبراير.

السابع من فبراير 2005م،عقد بشار الأسد اجتماعًابقيادات حزب البعث لبحث موضوع تنظيمي بحت لا علاقة له من قريب أو بعيد بالسياسة الخارجية السورية،وإذا ببشار يهاجم الحريري خلال الاجتماع وينعته بالعدو اللدود والمتآمر مع أمريكا وفرنسا على القيادة السورية متقاضيًا ثلاثمائة مليون دولار لتنفيذ هذا المخطط.

صُعِق أعضاء قيادة الحزب مما أُلْقِي على مسامعهم، وقال خدام لبشار إن في أمريكا مؤسسات تناقش هكذا أمور، وأي مبلغ يُدْفَع يجب أن يكون أعضاء الكونجرس على علم بها، لماذا هذا الكلام الآن؟! وما الفائدة منه؟

ثم تساءل خدام مستنكرًا:

كنت تَدَّعي أن الحريري يشتري الساسة بماله ليعرقل مصالحك، ثم تتهمه الآن بتَلَقّي الأموال من أمريكا لإسقاطك،كيف يستقيم ذلك؟!

في اليوم التالي أرسل خدام برقيةًللحريري يحذره من الخطر المحيق بهأخبره فيها بضرورة أن يحزم أغراضه ويترك لبنان، لكن الحريري لم يستمع للنصيحة،في نفس اليوم زار المبعوث الأممي تيري رود لارسن بيروت لبحث آلية لتطبيق القرار1559، مقترحًا ربط هذا القرار بالطائف لتشجيع النظام السوري على تنفيذه.

وفي العاشر من فبراير 2005م حاول الحريري للمرة الأخيرة طمأنة بشار،وبما أن علاقته مع نبيه بري كانت تمر بجفاء اختار أن تصل الرسالة لبشار وبري عبر أحد أصدقاء بري المقربين.

اجتمع الحريري في منزله بقريطم مع هذا الصديق،وطلب منه أن يطمئن بري ومن ورائه بشار إلى أنه لو فاز بالأغلبية في الانتخابات القادمة فلن

يشكل حكومةً ما لم يرض عنها الرئيس السوري،وكان رد بشارعاصفًا على ما سمعه.

رد بشارعلى ما وصله من الحريري بقوله:

من هو حتى يشاركني في السلطة في لبنان؟! ومن قال للحريري إنني سأكلفه بتشكيل الحكومة؟! ومن يظن نفسه حتى يضمن من الآن أنه سيحصل على الأغلبية في مجلس النواب؟!

كان بشاربذلك يزيد الهوة اتساعًا مع الحريري،وكان عليه أن يلطف الأجواء معه إذا ما أراد حفظ نفوذه في لبنان،لكن الرئيس الشاب أخذته العزة بالإثم وأبى إلا أن يعاديالحريري إلى النهاية، رغم ما ينذربه الأمرمن عواقب وخيمة خاصةً مع السيف الأُمَمِيّ المسلط على رقبة نظام دمشق.

زارلارسن دمشق في نفس يوم زيارته لبيروت والتقى الأسد،وأخبره أن المجتمع الدولي يرحب بقيام الرئيس السوري ببعض الخطوات الهامة في لبنان، حتى وإن سحب جنديًا واحدًا من جنوده في لبنان فسيشيد لارسن بهذه الخطوة في تقريره الذي سيرفعه للأمم المتحدة.

سأل بشارضيفه:

ومن يكون هذا الجندي؟

رد لارسن مشيرًا لرستم غزالة:

"رجلك في عنجر."

رد بشار بعجرفة:

"إن إخراج الجيش السوري من لبنان أسهل من إخراج غزالة من عنجر."

مساء نفس اليوم عاد لارسن إلى لبنان والتقى الحريري في قريطم، وأخبره بما كان من أمر بشار، لم يهتم للحريري بما صدر عن بشار لأنه كان يتوقعه، وبدأ الحريري يعد العدة لخوض المعركة بعدما زار البطريرك الماروني صفير.

خلال لقائه مع صفير، ناقش الحريري أمر الانتخابات، وطمأن الزعيم الروحي للموارنة إلى أن الحكومة لن تمانع في إجراء الانتخابات على أساس القضاء كما يرغب الموارنة، وحضر الحريري اجتماعًا لقرنة شهوان دعا إليه مروان حمادة لاتخاذ موقف موحد بخصوص القانون الانتخابي.

كان الحريري قد قرر أن يعلن انضمامه للمعارضة، وعلى هذا الأساس اتفق أعضاء قرنة شهوان على الالتقاء بالحريري في البرلمان يوم الرابع عشر من فبراير، التقى الحريري في نفس اليوم بصديقه عبد الحليم خدام في قريطم.

كان هاجس واحد يطارد خدام في يومه ويقظته وهو اغتيال الحريري،وقد طلب من الحريري صراحةً خلال اللقاء أن يركب طائرته الخاصة ويغادر إلى باريس؛فبشار سيقتله لا محالة.

استنكر الحريري ما قاله له خدام، ورد عليه بأنه تَلَقّى تطمينات من الرجل الثانيفي سوريا ماهر الأسد أنه بمأمن من الخطر.

رد عليه خدام ساخرًا:

"هكذا يفعل نظام الأسد مع من ينوى قتله.يطمئنه ثم يجهز عليه."

رد الحريري:

"لا أستطيع السفر،الانتخابات على الأبواب."

رد خدام في سخط وغضب:

"لعن الله الانتخابات،فيم ستفيدك لو قتلوك؟."!

وانتهى اللقاء وقد تأكد خدام أن الحريري سيلقى مصرعه خلال أيام قلائل بشهادة من الحريري نفسه،وجاءت أحداث الثاني عشر من فبراير لتزيد خدام يقينًا بآرائه.

opeikandi.com

في ذلك اليوم، ألقى الأمن اللبناني القبض على أربعة عاملين في مؤسسة الحريري وهم يوزعون صفائح زيت الزيتون التي اعتاد رئيس الوزراء السابق توزيعها على العائلات الفقيرة قبيل شهر رمضان، وتأخر التوزيع هذا العام لحلول رمضان قبل ميعاد حصاد الزيتون.

تسببت حماقة هذا التصرف في سخط عام في أوساط اللبنانيين.

أدان الساسة والشخصيات اللبنانية العامة على حد سواء هذا التصرف، ووصف محمد رشيد قباني مفتي الجمهورية السُّنّيّ الاعتقال الذي طال عمال مؤسسة الحريري بالمخزي برغم ولاء قباني لسوريا، وصَرَّح إيلي الفرزلي بأن الاعتقالات ليس لها ما يبررها.

خصص الحريري جل وقته للبحث عن سبيل للخروج من تلك الأزمة التي سببها له بشاروغزالة، وتَلَقَّى صباح الثالث عشر من فبراير اتصالًا هاتفيًا من رستم غزالة الذي طلب من الحريري وبوقاحة يُحْسَد عليها مبلغًا كبيرًا من المال لقاء إغلاق ملف اعتقال العمال الأربعة.

وافق الحريري مُرْغَمًا حتى لا يتعطل عمله مجددًا كما تعطل في السابق، ووعد غزالة بمنحه المال في الغد الذي يوافق يوم الإثنين؛ لأن اليوم هو الأحد والمصارف مغلقة. لكن غزالة أرغى وأزبد وأصر على أن يحصل على المال يوم الثالث عشر من فبراير وإلا حولها لقضية رشوة انتخابية.

اضطر الحريري من جديد للنزول على رغبة رئيس المخابرات السورية وبعث رئيس حراسته يحيى العرب بالمبلغ المطلوب لعنجر،وكان جزاء الحريري السباب بأقذع الألفاظ.

السابعة وعشر دقائق صباح الرابع عشر من فبراير 2005م،استيقظ الحريري بعد نوم متقطع، وبعد ثلث ساعة قضاها بين تناول إفطاره وارتداء بذلته نزل الحريري ليستقل سيارته.

كان أبو طارق رئيس طاقم الحراسة، وقاد عامر شحادة رئيس الأمن السابق للحريري السيارة التي ستتولى حراسة الحريري في طريقه لمبنى مجلس النواب بعد العروج على مكتبه.

تحركت سيارة الحريري المرسيدس المصفحة تتبعها ثلاث سيارات تضم أفراد طاقم الحراسة المكلف بحماية الحريري،وكانت هذه السيارات كما سيارة الحريري تحوي أجهزةً لمقاومة التشويش الإليكتروني.

وصل الحريري لمكتبه بالقرب من فندق سان جورج القريب من مبنى البرلمان،وبعدما مكث لفترة في مكتبه وجد الساعة تقترب من العاشرة والنصف، فطلب من سكرتيره عدنان البابا إعلام أفراد طاقم الحراسة أن الحريري سيتحرك للبرلمان لحضور جلسة البرلمان ولقاء أعضاء قرنة شهوان؛ لإعلان انضمامه للمعارضة رسميًا.

ob eikan.com

وصل الحريري للبرلمان،وتَلَقّى من رئيس حراسته نبأ وجود نجيب فريجي المتحدث باسم الأمم المتحدة في بيروت قرب مقهى النجمة خارج ساحة البرلمان،فوعد الحريريبأن يلتقي فريجيعقب نهاية المناقشة مع مروان حمادة وعدد من النواب في الغرفة الرئيسة للبرلمان.

هيمن القانون الانتخابي على النقاش بين الحريري وحمادة والنواب،والتقى الحريري كذلك مع النائب عن كتلته غطاس خوري وباسل فليحان مستشاره العائد لتوه من سويسرا رغم التحذيرات التي وصلت إليه بالاغتيال.

التقى الحريريفي جملة من التقى وزير خارجيته السابق فارس بويز،ووعده بلقاء مطول في مقهى النجمة عقب أن يفرغ من مناقشاته النيابية،وكان يرغب بمناقشته في ورقة العمل التي أعدها لضمان الفوز في الانتخابات.

أبلغ أبو طارق نجيب فريجي والصحفيين الموجودين معه المنتظرين في مقهى النجمة بأن الحريري سيكون معهم خلال دقائق،وفي الثانية عشرة ظهرًا وخمس وثلاثين دقيقةً وصل الحريري لمقهى النجمة ليلتقي فريجيالذي كان بصحبته أربعة صحفيين.

ناقش الجميع القانون الانتخابي الذي وضعه السوريون، وأخبرهم الحريري بأنه لن يرشح أي نائب موال لسوريا على لائحته

الانتخابية،واشتكى الحريريمن أن هؤلاء الموالين كانوا أعضاءًفي كتلته النيابية عام 2000م، وكثيرًا ما طعنوه في ظهره.

الثانية عشرة وثمانٍ وأربعون دقيقةً بعد الظهر،أخبرأبو طارق مساعده طلال ناصرأن يستعد للمغادرة مع الموكب، لكنه طلب منه مناقشة أي طريق سيختارسلوكه إلى قريطم مع وجود ثلاثة طرق؟

الطريق الأول:يمر جنوبًا خارج ساحة النجمة تابعًا الطريق العام في اتجاه مطاررفيق الحريريحول النصف الغربي من المدينة وصولًا إلى قريطم.

الطريق الثاني:إلى الغرب ويمر بالثكنات العسكرية العثمانية التي تضم في الوقت الحاضرمكتب رئيس الوزراء مرورًا ببرج المرثم منطقة الحمرا وفي النهاية قصرالحريريفي قريطم.

الطريق الثالث:طريق الشاطئ،وكان أطول قليلًا من الطريق السابق،لكن الحريري كان يريد الوصول لقصره في الواحدة ظهرًا،والطريق يكون سريعًا في هذا الوقت من اليوم.

كان الحريري قد دعا بعض النواب للغداء معه في قصره بقريطم لتنسيق جهودهم قبل الانتخابات،وعلى هذا الأساس استقررأيالحريري وطاقم حراسته على سلوك طريق الشاطئ، وكان الحريري ومن معه على ثقة ألا تهديد ينتظرهم معتمدين على الإمكانيات الأمنية المتوفرة في سياراتهم.

الثانية عشرة وثلاث وخمسون دقيقة،انتهى اللقاء بين الحريري ونجيب فريجيفي مقهى النجمة، وغادر الحريري المقهى بصحبة باسل فليحان متجهين إلى موكب السيارات ليغادربهما،وكان الموكب يضم في آخره سيارة إسعاف من الطراز الأكثر تطورًا في العالم لنجدة مَنْفي الموكب إذا ما أصابهم مكروه.

تقدمت الموكب سيارة تويوتا لاند كروزر بها أربعة ضباط شرطة من قوى الأمن الداخلي،وكانت سيارة عامر شحادة هي الثانية في الموكب، وكانت سيارة الحريري هي الثالثة.

أجرى طاقم حراسة الحريري أربعة اتصالات مع بقية سيارات الحراسة وخاصة السيارتين اللتين تؤمنان يمين ويسار الموكب،وكان حراس الموكب مدججين بالسلاح الذي تفاوت بين المسدس عيار التسعة مم وبنادق الإم 16 ورشاشات هيكلر آند كوتش.

كانت هناك سيارة نقل بيضاء من طراز ميتسوبيشي تنتظر بجوار فرع بنك إتش إس بي سي البريطاني الملاصق لفندق سان جورج.فيما غطت ملاءة رمادية محتويات السيارة من الخلف.

كان سائق السيارة ينتظر مرور موكب الحريري،ومرت السيارة الأولى والثانية عند الساعة الثانية عشرة وأربع وخمسين دقيقة ظهرًا،وعندما وصلت سيارة الحريري بعد دقيقة تحول المكان لقطعة من الجحيم.

كان فارس بويز يعقد مؤتمرًا صحفيًا عندما صَمَّ دوي الانفجار آذانه،اعتقد بويز للوهلة الأولى أنه خرق إسرائيلي لجدار الصوت،سأل من حوله والهلع يكاد يوقف قلبه:

هل غادر الحريري مقهى النجمة؟

فَرَدَّ أحد النواب عليه:

منذ دقيقتين.

لم يطمئن هذا الخبر بويز،فمن الممكن أن يكون الانفجار قد استهدف موكب الحريري المغادر لتوه،ولم يكن بويز وحده من شعر بالخطر عندما علم بالانفجار؛ فغطاس خوري كان يشاطره نفس الإحساس.

كان خوري متواجدًا في مستشفى الجامعة الأمريكية نظرًا لعمله كجراح هناك،وعندما هز الانفجار منطقة فندق سان جورج القريبة من مبنى البرلمان ومقهى النجمة أخبره حدسه أن مكروهًا قد وقع.

opeikandi.com

كان خوري قد وضع احتمالين لا ثالث لهما، فإما أن يكون المستهدف هو رفيق الحريري أو وليد جنبلاط، وإن كان الحريري هو الاحتمال الأرجح؛ نظرًا لمكوثه في البرلمان ثم في مقهى النجمة حتى وقت قليل من وقوع الانفجار.

لكن خوري تذكر أن جنبلاط لم يكن موجودًا لا في مجلس النواب ولا مقهى النجمة في هذا اليوم بالرغم من وجود منزله في منطقة كليمنصو القريبة من موقع الانفجار، إذن فالحريري هو مَنْ اسْتُهْدِف دون شك.

خارج مبنى البرلمان كان نجيب فريجي وعلى حمادة الصحفي بجريدة النهار لا زالا موجودين عندما وقع الانفجار، وأخبرهما أحد الحراس على باب مجلس النواب بأن الانفجار وقع بين شاطئ البحر وكليمنصو، ودب الشك في قلبيهما كما غطاس خوري أن وليد جنبلاط أو رفيق الحريري هما مَنْ استهدف.

هاتف علي حمادة وليد جنبلاط لكن لم يجب أحد، زاد القلق البادي على فريجي وحمادة لكنهما أملا أن يكون ظنهما خاطئًا.

عاود علي حمادة الاتصال بهاتف جنبلاط عدة مرات حتى أجابه الزعيم الدرزي، وسأله حمادة عن حاله فَرَدَّ بأنه بخير، وبعدما أنهى حمادة

محادثته أبلغ فريجي أن جنبلاط على قيد الحياة، فقال له فريجي على الفور:

حاول الاتصال بالحريري.

كان وليد جنبلاط قد سمع وهو في منزله صوت الانفجار الهادر، اعتقد وضيفه غازي العريضي أنه خرق للطيران الإسرائيلي الذي اعتاد انتهاك الأجواء اللبنانية، لكن ما إن شاهدا الدخان المتصاعد في السماء حتى تأكدا أنه عملية اغتيال مدبرة.

قال جنبلاط للعريضي:

"حاول الاتصال بقريطم."

اتصل العريضي بقريطم دون أمل في أن يرد عليه أحد، ازداد قلق جنبلاط الذي أرسل أحد حراسه ليستطلع الأمر من موقع الانفجار، وما إن غادر الحارس حتى أجاب أحد المتواجدين في قريطم على اتصال العريضي.

سأل العريضي بقلق:

أين الرئيس الحريري؟

رد عليه الطرف الآخر:

obeikandi.com

لا نعلم،لا معلومات لدينا.

أسفر الانفجار عن سقوط عشرات من القتلى والجرحى،تحول طريق البحر لبركة من الدم القاتم، وصنع الانفجار حفرةً قُدِّر اتساعها بعشرة أمتار، وتحولت سيارات موكب الحريري لكتلة من الحديد المحترق،حتى سيارة الإسعاف المتطورة في آخر الموكب لم تنج من الانفجار.

وسط هذا المشهد المأساوي،خرج عامر شحادة ليبحث عن الحريري وهو يسعل من فرط الدخان المتصاعد من جراء الانفجار، ورأى شحادة يحيى العرب مساعد أبي طارق رئيس الفريق الأمني خارجًا من ركام الانفجار هو الآخر.

سأل الاثنان بعضهما عن الحريري دون أن يتلقيا جوابًا،فيما عملت سيارات الإسعاف التي هرعت لمكان الجريمة على نقل المصابين والقتلى لمستشفى الجامعة الأمريكية القريب من الحادث.

نُقِل باسل فليحان للمستشفى مصابًا بحروق خطيرة،ونقل معه أشخاص مصابون بإصابات قاتلة جراء الانفجار، منهم من نجا بعد إجراء عمليات جراحية لهم ومنهم من مات داخل غرفة العمليات حتى قبل الشروع في إجراء العملية، ونُقِلَت الأشلاء والجثث المشوهة والمجهولة إلى ثلاجة الموتى في المستشفى.

شحب وجه د.أحمد حصري المسئول عن وحدة العناية المركزة بالمستشفى عندما رأى فليحان في العناية المركزة؛ لملازمته الحريري خلال مغادرة الموكب، حيث تزاملا معًا خلال الدراسة،وكان قد سمع أن فليحان رافق الحريري قبل الاغتيال،وأُلْقِيفي روع حصري أن مكروهًا أصاب الحريري.

كان حصري يرى في الحريري صاحب فضل عليه؛ فالبعثة التي حصل عليها لدراسة الطب في الولايات المتحدة عام 1986م كانت عن طريق مؤسسة رفيق الحريري،ويحزفي نفسه أن يرى ذلك الرجل الخَيِّروقد امتدت إليه يد غادرة لتتخلص منه.

سارع غازي العريضي ووليد جنبلاط بالحضور لمستشفى الجامعة الأمريكية،وفوجئا هناك ببهاء ابن رفيق الحريري الأكبروقد بدا مضطربًا،وفي هذه الأثناء يصل عدنان البابا حيث استقبله طبيب الحريري الخاص جابر صوايا.

سأل صوايا البابا:

هل تعلم ماذا كان يرتدي هذا الصباح؟

رد البابا بالإيجاب،وعُقِد لسان البابا عندما رأى صوايا يسلمه ربطة عنق مقلمة بالأزرق والأبيض، إنها تلك التي اختارها للحريري بنفسه هذا

الصباح، ثم يعرض صوايا على البابا الجثة المحترقةالتي كان صاحبها يرتدى هذه الملابس.

رغم تَشَوُّه الجثة تَعَرَّف البابا على صاحبها وأكد أنه رفيق الحريري،وقال عدنان بثقة:

إنه الرئيس الحريري.

رد صوايا:

البقاء لله.

في الخارج،انفرد ضابط الطوارئ بجنبلاط وقال له بأسى:

"لا فائدة،لقد تُوُفِّي."

ازداد توتربهاء الحريري وطلب من جنبلاط إخباره بما حدث،فَرَدَّ جنبلاط:

لنذهب إلى المنزل الآن.

لم يحتمل بهاء أكثرمن ذلك وألح على جنبلاط ليعلم منه ما جرى،رد جنبلاط بحزن:

"لقد توفي أبوك."

obeikandi.com

تجمع حشد من الناس خارج مقر الحريري في قريطم وهم يغلون من الغضب،وصاح أحدهم في عنف:

"نعلم من قام بهذا الأمر،سوريا."

وداخل المنزل امتلأت الطرقات ومناطق الاستقبال بأعضاء المعارضة والصحفيين وأصدقاء آل الحريري،واجتمع أقطاب المعارضة ليتناقشوا فيما بينهم حول البيان الذي سيصدرونه حول هذا الأمر الجلل، وفيما هم كذلك دخل عليهم سعد نجل الحريري الثاني.

وصل سعد لبيروت مباشرةً من (أبو ظبي)،وكان قد تحدث مع الرئيس جاك شيراك خلال رحلته عما حدث، ووعده شيراك بحضور الجنازة، ووضع باسم السبع مسودة بيان اعترض عليها مروان حمادة ناعتًا إياها بالمتساهلة للغاية،وحَذَّر جبران تويني من تضمين البيان الدعوة لاستقالة لحود التي سيرفضها البطريرك صفير.

بعد مشاورات بين أعضاء المعارضة صيغ البيان الإعلامي المُعَدَّل،تلاه باسم السبع ووصف فيه التفجير بالإجرامي،وأن المعارضة أخذت على عاتقها هزم المخطط الشيطاني، وبلغ السبع جوهر الأمر قرب نهاية البيان،إذ قال السبع:

"فيما يتعلق بمقتل الحريري،تُحَمِّل المعارضة اللبنانية السلطتين اللبنانية والسورية - نظرًا إلى أنها السلطة الفعلية القائمة في لبنان - مسئولية هذه الجريمة وجرائم مماثلة في لبنان."

طالب البيان كذلك بتحقيق دولي حول مقتل الحريري،وطالب الحكومة اللبنانية الحالية بالاستقالة وتشكيل حكومة مؤقتة،وانسحاب القوات السورية من لبنان قبل بدء الانتخابات البرلمانية، والقيام بإضراب وطني لمدة ثلاثة أيام بدءًا من الغد.

عقب انتهاء بيان المعارضة تجمع حشد ضخم أمام منزل الحريريفي قريطم أكبر من الحشد السابق،ونزل كذلك السُّنَّة الغاضبون في مناطق مختلفة من لبنان يلوحون بصور الحريري ويقطعون الطرقات بالإطارات المشتعلة.

في بيروت الغربية،مزق حشد من مؤيدي الحريري صورةً كبيرةً لحافظ الأسد، وحاصر آخرون مقر حزب البعث وحطموا نوافذه، وحطموا لافتات ترفع صورًا لبشار، وفي البقاع أطلقت النيران بكثافة على شاحنة تقل عمالًا سوريين.

وفي إحدى البلدات وزعت مجموعة باسم الشهيد رفيق الحريري منشوراتٍ تدعو السوريين المتواجدين فيها لمغادرة البلدة قبل العشرين

من فبراير.وفي رد لسعد الحريري على سؤال حول الجهة التي تقف وراء مقتل الحريري قال:

"هم معروفون جيدًا."

وفي أول رد فعل لسوريا على المستوى الرسمي،اعتبر بشار الأسد اغتيال الحريري عملًا إجراميًا شنيعًا، واعتبرت الحكومة اللبنانية في بيان لها أن مرتكب هذا الفعل استهدف استقرار لبنان،وصرح الرئيس اللبناني إميل لحود بأن القاتل سعى إلى التحريض على الفتنة.

كان عبد الحليم خدام هو المسئول السوري الوحيد الذي حضر لبيروت بمجرد سماع نبأ اغتيال الحريري،وواسى نجله بهاء وحضر التعازي التي أقامتها عائلة الحريري في قريطم رغم مشاعر السخط الجلية ضد كل ما يمت بصلة لنظام الأسد.

حضر جاك شيراك إلى بيروت في اليوم التالي برفقة نازك الحريري أرملة رفيق لحضور جنازة الحريري الشعبية التي ستقام في السادس عشر من فبراير، بعدما رفضت عائلة الحريري والمعارضة عرض الحكومة اللبنانية لإقامة جنازة رسمية للفقيد.

صباح الخامس عشر من فبراير ظهرت بيروت كمدينة أشباح؛ لقد لبى اللبنانيون دعوة المعارضة وبدأوا إضراب الأيام الثلاثة الذي دُعِي إليه

بالأمس، وأُغْلِقَت المدارس والمتاجر، وبَثَّت محطات التلفزة آياتٍ قرآنيةً حدادًا على اغتيال الحريري.

خشيت حكومة عمر كرامي أن يفلت زمام الأمر من يدها، فنشرت قواتٍ من الجيش والأمن اللبنانيين على تقاطعات بيروت الرئيسة وبالقرب من موقع الانفجار في سان جورج الذي تجمع عنده عدد من اللبنانيين واضعين عددًا من الشموع والأزهار بالقرب من موقع الانفجار.

حضر سعد الحريري في موقع الانفجار وسط جمع رهيب من الناس،وقال لهم إنه سيستمر في خدمة لبنان كما فعل والده، وذلك بعدما اعتذر بهاء شقيقه الأكبر عن خوض غمار السياسة الشائكة في لبنان،وبالتالي لم يكن أمام سعد مفر من القبول بوراثة تركة أبيه السياسية.

وفيما يتعلق بتشييع جثمان الحريري،أكد آل الحريري أن الجنازة ستكون شعبية ولا داعي لحضور وزراء الحكومة اللبنانية أو أي ممثل عنهم، وحذر جنبلاط حكومة كرامي من الإقدام على حضور الجنازة؛ حتى لا يتعرض من سيحضر عنها للرشق بالبيض والحجارة من اللبنانيين الغاضبين.

صباح السادس عشر من فبراير 2005م كان يومًا مشهودًا،كانت شوارع بيروت تموج بالمشيعين الذين تقاطروا لتشييع "سَيِّد لبنان" كما كان يُطْلَق

على رفيق الحريري إلى مثواه الأخير، وكانت كل الطوائف اللبنانية حاضرةً لا السُّنَّة اللبنانيين فقط.

أقلت حافلات تابعة لوليد جنبلاط آلافًا من دروز الشوف إلى بيروت للمشاركة في الجنازة،وإلى جانب الدروز سار المسيحيون رجالًا ونساء، حيث حملت النسوة صورًا للحريري فيما سارت إلى جانبهن نساء السُّنَّة بحجابهن ذي الربطة المميزة، وكان حشد المعزين يزداد كل دقيقة خاصة من مناطق بيروت المسيحية.

هذا فيما كان الشيعة حلفاء سوريا قد اكتفوا بالتعزيةالتي قدمها حسن نصر الله لعائلة الحريريفي قريطم،واقتصر حضور العزاء من جانبهم على عدد رمزي من رجال الدين الشيعة،وغاب الحضور بعدما خشيت حكومة كرامي وكذلك إميل لحود من رد الفعل الشعبي العنيف.

بدت بيروت في ذلك اليوم كبحر من البشر متلاطم الأمواج،كان الحزن والحنق من النظام السوري هما العاملان المشتركان بين الحاضرين لوداع الفقيد المغدور.

تشابكت كذلك أيدي رجال الدين السُّنَّة والمسيحيين والدروز مع مَن حضر مِن رجال الدين الشيعة خلال مسيرتهم لمثوى الحريري الأخير،فيما تُلِيَت

آيات القرآن من مكبرات الصوت في مسجد محمد الأمين الذي سيدفن الحريري في ساحته بعدما اغتيل قبل استكمال بنائه.

حان موعد صلاة الظهر خلال مراسم التشييع،وافترش المصلون قارعة الطريق لأداء الصلاة فيها في حراسة شركاء التشييع من المسيحيين،وبعد نهاية الصلاة بدأت مراسم الدفن.

أُنْزِل اثنان وعشرون نعشًا إضافة لنعش الحريري الذي تقدم الموكب الجنائزي وقد غُطِّيَ بالعلم اللبناني، ثم أُخْرِج جثمان الحريري ليدفن حيث ضريحه في مسجد محمد الأمين،وهنا انحنى جاك شيراك احترامًا أمام قبر الحريري وسط تصفيق المشيعين وهتافهم الله أكبر.

كانت هذه الحشود مُوَجَّهَةً أيضًا ضد نظام بشار الأسد،وكانت بمثابة استفتاء شعبيلبناني على التواجد السوري على أرض لبنان، حيث بدا الغضب من التواجد السوري على وجوه اللبنانيين، والاتهامات تُوَجَّه دون مواربة للنظام السوري.

عقب عدة أيام من دفن الحريري،دعت المعارضة اللبنانية اللبنانيين لاستئناف حراكهم المناهض لسوريا والتظاهر تحت شعار انتفاضة الاستقلال لتحقيق عدة أهداف هي:

-1انسحاب القوات السورية.

-2استقالة حكومة كرامي.

-3الوصول لقتلة الحريري والقصاص منهم.

جرت المظاهرة الأولى في الحادى والعشرين من فبراير2005م،أي بعد أسبوع من اغتيال الحريري، عندما تجمع خمسة وعشرون ألف متظاهر قرب فندق سان جورج حيث اغتيل الحريري متجاهلين تحذير الحكومة من خطورة هذه الاحتجاجات وما قد يترتب عليها.

حمل المتظاهرون يومها أعلامًا حملت الإشارة لطوائفهم وانتمائهم السياسي،وكانت تلك خطوة ذكية منهم لتفويت الفرصة على الادعاءات الكاذبة التي ستصدرعن أبواق نظام الأسد في لبنان أن هؤلاء المحتجين قلة لا تمثل الشعب اللبناني،وأن نظام الأسد بريء من دم الحريري براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

التزم المتظاهرون الصمت عند الساعة الواحدة إلا خمس دقائق إحياءً لذكرى اغتيال الحريري،وقطع لحن النشيد الوطنياللبناني هذا الصمت المطبق، ثم بدأ المتظاهرون في ترديد كلمات النشيد.

زاد عدد المتظاهرين وهم في طريقهم لزيارة قبرالحريري غيرآبهين بأفراد الجيش وعناصرمكافحة الشغب اللبنانيين،وبدأ المتظاهرون في التَّرَحُّم

Obeikandi.com

على الحريري كل حسب ديانته، وارتدى بعضهم ملابس كتب عليها عبارة لا للإرهاب السوري.

ابتهج جبران تويني القيادي بالمعارضة لهذا الأمر،وثَمَّنَ استجابة الشعب لدعوى المعارضة، معتبرًا أن اللبنانيين هم من يقودون الحراك وليس ساستهم، واعتبر أن هذا الحدث بداية لأمر عظيم في تاريخ لبنان المعاصر.

آتت هذه التظاهرة أُكُلَهَا،وفي الرابع والعشرين من فبراير أعلن وليد المعلم أن القوات السورية ستعيد الانتشار في سهل البقاع تنفيذًا لاتفاق الطائف، لكن الأمم المتحدة وأمريكا أبدتا سخطهما على الخطوة السورية،واستهزأ وليد جنبلاط بالإعلان السوري قائلًا:

سادس إعادة انتشار خلال خمس سنوات،كم سيتطلب الأمر لمغادرة السوريين بشكل كامل؟!

ارتفعت وتيرة الغضب اللبناني على التواجد السوري،فبعد عدة أيام -وبالتحديد في الثامن والعشرين من فبراير- نصب المعارضون للوجود السوري خيامًا في محيط ساحة الشهداء أُطْلِقَ عليها مخيمات الحرية،رُفِعَت عليها أعلام لبنان للاعتصام بها مطالبين برحيل القوات السورية.

openkand.com

حاولت حكومة عمر كرامي عرقلة محاولات مؤيدي المعارضة الوصول لخيام الاعتصام،فأقام الجيش حواجز أمنيةً ونقاط تفتيش وأسلاكًا شائكةً اجتازها المعارضون ووصلوا لساحة الشهداء، حتى وصل بهم الأمر لإزالة الأسلاك الشائكة نهائيًا لفتح الطريق أمام جحافل الغاضبين.

نُصِبَت كذلك شاشات تليفزيونية عملاقة؛ ليشاهد عليها المحتجون النقاش الجاريفي البرلمان اللبناني حول نَيْل حكومة عمر كرامي ثقة النواب،كان كرامي يُمَنّي نفسه بفوز مضمون؛ لأن ثلاثة أرباع المجلس من حلفاء سوريا، لكن حدثت المفاجأة.

صب نواب المعارضة انتقاداتهم اللاذعة لحكومة كرامي والرئيس لحود صَبًّا خلال كلماتهم داخل البرلمان،وجاء المسمار الأخير في نعش كرامي وحكومته عندما تحدثت بهية الحريريالتي اتهمت كل من سكت ومنع الحقيقة من الظهور بالاشتراك في قتل شقيقها.

شعر كرامي بالإهانة والإحباط مما سمعه،وبدون أن يستشير أحدًا أو يخبره بما ينوي فعله طلب كرامي من نبيه بري أن يلقي كلمةً يرد فيها على مطالب النواب، وفجأة أعلن كرامي استقالة حكومته وسط هتافات الفرح من نواب المعارضة ومعتصمي ساحة الشهداء ووجوم نبيه بري.

عاتب بري كرامي على ما أقدم عليه دون أن يرجع إليه،لكن كرامي طلب منه أن يراعي حالته بعد ما سمعه من نواب المعارضة إضافةً إلى الشارع الثائر ضده، حتى نواب مدينته طرابلس كانوا في صفوف معارضيه،فكيف يبقى على رأس حكومة لفظها قسم لا يستهان به من اللبنانيين؟

استغلت المعارضة نجاحها في الإطاحة بحكومة كرامي لترفع سقف مطالبها وتحقق نجاحًا جديدًا،فأصدرت قيادات المعارضة قائمةً من سبعة مطالب كان على رأسها الانسحاب السوري من لبنان، واستقالة القيادات الأمنية التي اتهموها بالضلوع في اغتيال الحريري.

ثَمَّنَت إدارة بوش الهَبَّة الشعبية اللبنانية ضد الوجود السوري وحلفائه،وأطلقت عليها اسم ثورة الأَرْز؛ ليتسنى لها دعمها والترويج لها في الكونجرس ولدى حلفائها الأوروبيين، خاصةً مع حساسية الغرب لكلمة انتفاضة التي ارتبطت بالكفاح الفلسطيني ضد إسرائيل الذي وُصِمَ بالإرهاب.

امتدح جبران تويني القيادي بالمعارضة "وهو أيضًا مدير عام جريدة النهار" اعتصام المناوئين للحكومة في ساحة الشهداء،واعتبره احتفالًا بالوحدة الوطنية والديمقراطية والإرادة الحرة، وأن الوحدة الوطنية اللبنانية أقوى من كل القرارات الدولية.

شعر حلفاء سوريا اللبنانيون بالحرج إزاء الغليان الشعبي المتصاعد ضد النظام السوري،وبدأوا في البحث عن خط رجعة لهم مع معارضيهم اللبنانيين إذا ما أدت الضغوط الدولية على حاكم دمشق للانسحاب.

على هذا الأساس دعا حسن نصر الله أمين عام حزب الله للحوار بين الموالين والمعارضين وتهدئة الأجواء المحتقنة،وكان حزب الله يراقب ما ستؤول إليه الأوضاع في لبنان ليضع خططه بناءً على ذلك، ولم يعتبر أعضاء الحزب دعوة نصر الله أكثر من مناورة سياسية لإعادة ترتيب الأوراق.

في دمشق كان بشار الأسد يشعر بنفس الضيق الذي يشعر به حلفاؤه اللبنانيون،وكأن الضغط الدولي عليه لم يكن كافيًا ليجد ضغطًا آخر مورس من الأنظمة العربية الداعمة للحريري والمعارضة اللبنانية على دمشق لتنجز تغييرًا جذريًا في لبنان يرضى عنها العرب والغرب.

كانت أولى الإشارات التي تلقاها بشار الأسد حول هذا الأمر من السعودية الحليف الأبرز لرفيق الحريري،وذلك في الرابع من مارس 2005م،عندما قام بشار بصحبة بعض أركان نظامه بزيارة الرياض ولقاء وَلِي العهد السعودي حينها الملك عبد الله، وطغى على اللقاء البرود والاتهام.

سـأل ولى العهـد السـعودي ضـيفه السـوريحول السـبب الـذي حـدا بـه لاغتيال الحريري،فَرَدَّ بشاربتلعثم إنه إذا كان من اغتال الحريري سوريين فربما يكونـون مـن التـابعين للمخـابرات إبـان وجودهـا في لبنـان، فَـرَدَّ الأمير عبد الله على بشار قائلًا:

"يجدربك الانسحاب من لبنان بجنودك وعملاء مخابراتك."

رَدَّ بشار مراوغًا:

"الأمر ليس معتمدًا عَلَيَّ بالكامل،الانسحاب سيتطلب شهورًا ليتم."

فَرَدَّ عليه وَلِيّ العهد السعودي مهددًا:

"إمـا مغـادرة لبنـان بشـكل كامـل خـلال أسـابيع أو إفسـاد العلاقـات بـين بلدينا."

الخـامس مـن مـارس 2005م،ألقـى بشـار الأسـد خطابًـا في مجلـس الشـعب السـوري حـول تطـورات الوضـع في لبنـان شـاهده المعتصـمون في سـاحة الشهداء وسط صيحات استهجان كلما صفق النواب السـوريون لرئيسـهم، لكن أهم ما أعلنه بشارفي خطابه هو انسحاب قواته من المناطق اللبنانية لتتركزبشكل كامل في سهل البقاع.

obeikandl.com

لكن إعلان بشار في خطابه لم يمنع معتصمي ساحة الشهداء من القيام بمسيرة جديدة إلى فندق سان جورج للمطالبة بالانسحاب السوري الكامل، ورد حلفاء سوريا على طريقتهم الخاصة.

دعا حسن نصر الله في السادس من مارس 2005م إلى تنظيم تظاهرة مؤيدة لسوريا خلال يومين تحت شعار (شكرًا سوريا) في ساحة رياض الصلح المجاورة لساحة الشهداء؛ لشكر القيادة السورية على ما دعاه "التضحيات التي قدمتها من أجل وحدة لبنان وسلامته."

في اليوم التالي لدعوة نصر الله، بدأت القوات السورية تتمركز في سهل البقاع تاركةً معسكراتها وحواجزها العسكرية في بقية المناطق اللبنانية خاويةً على عروشها، حدث ذلك بينما كان بشار الأسد يستقبل إميل لحود في دمشق للتأكيد على متانة العلاقات بين دمشق وبيروت.

لَبّى الشيعة اللبنانيون وبعض المسيحيين وأعضاء الأحزاب الموالية لسوريا بالإضافة لعمال سوريين نقلتهم حافلات حزب الله دعوة نصر الله في الثامن مارس، والتي أطلق عليها تظاهرات الثامن من آذار ملأوا ساحة رياض الصلح، وخطب فيهم نصر الله واصفًا سوريا بالباقية في القلب والعقول، معتذرًا عمن وجهوا للنظام السوري الاتهام باغتيال الحريري.

في العاشر من مارس أعاد إميل لحود تكليف عمر كرامي بتشكيل حكومة بعدما تَلَقّى جرعة ثقة من تظاهرات حزب الله،ودعا كرامي المعارضة للانضمام لحكومته التي يريدها حكومة وحدة وطنية. لكن قادة المعارضة رفضوا تلبية دعوة كرامي،وردوا عليها رَدًّا فَظًّا.

وصف جبران تويني دعوة كرامي بالإهانة،في حين نظم حزب الله تظاهرة تأييد جديدة لسوريا في النبطية بجنوب لبنان،وبدا للمعارضة أن نظام الأسد يُزَوِّر شعبيته في لبنان عبر الحشود الضخمة المؤيدة له،ووقع تطور دوليقلب الموازين السياسية لصالح المعارضة.

الثاني عشر من مارس 2005م،أبلغ تيري رود لارسن بشارًا الأسد نيابةً عن الأمم المتحدة والدول الدائمة في مجلس الأمن وجوب سحب قواته ومخابراته من لبنان بحلول نهاية أبريل 2005م،وحصل على ضمانات من الرئيس السوري بذلك.

منتشيةً بخطوة لارسن،أرادت مكونات المعارضة استعراض شعبيتها الحقيقية هي وبقية الأطياف السياسية والشعبية المناوئة لسوريا،وهنا كان قرار تنظيم التظاهرة الحاشدة في ساحة الشهداء يوم الرابع عشر من مارس 2005م.

حاول الجيش والأجهزة الأمنية اللبنانية عرقلة وصول المحتجين لساحة الشهداء كما درجت العادة،وبعد أن أعلن حزب الله نيته تنظيم مظاهرة مضادة لمظاهرة المعارضة ألغى الحزب هذه التظاهرة تجنبًا للصدام مع المعارضة.

حضر مليون شخص التظاهرة،وبعد غناء النشيد الوطني استمع المعتصمون لخطب حماسية من أقطاب المعارضة،وبعد الهتافات العدائية ضد سوريا واتهام نظام الأسد مجددًا باغتيال الحريري أكد المتظاهرون ألا حل سوى الانسحاب السوري.

obeikandl.com